عالم الذباب

بقلم المرحوم الأستاذ معروف الرصافي

في سنة ١٩٤٣ أصدر الدكتور العراقي فائق شاكر كتابا عنوانه (عالم الذباب) تعرض فيه لحديث الذباب بالقدح والتأييد، وابرى له المرحوم الأستاذ معروف الرصافي شاعر العراق بالجرح والتفنيد. وقد تجدد اليوم هذا الخلاف بين مجلة لواء الاسلام ومجلة الدكتور فرأينا من المفيد أن ننشر مقال الأستاذ الرصافي وقد أرسله إلينا في حينه فلم ينشر لبعض الأسباب

الحديث النبوي

نذكر لك أولا نص عبارة الحديث الذي ذكره الدكتور في رسالته عن أبي هريرة « إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه ، فان في أحد جناحيه داء ، وفي الآخر شفاء وإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء »

وفي روايتي النسائي وابن ماجه . « إن أحد جناحي الذباب سم، والآخر شفاء ، فإذا وقع في الطعام فامقلوه فانه يقدم السم ويؤخر الشفاء »

هذا ما ذكره الدكتور في رسالته . ونذكر نحن الروايات الآتية نقلا عن شرح البخاري للعيني »

« إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ، فان في إحدى جناحيه داء ، والأخرى شفاء » الجزء السابع الصفحة ٣٠٢

ونقلا عن شرح البخاري أيضا للعيني :

« إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه ، فان في إحدى جناحيه شفاء وفي الآخر داء » . الجزء العاشر الصفحة ٢١٧

ونقلا عن الجامع الصغير للسيوطي هكذا .

إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فان في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء » . رواه البخاري وابن ماجه عن أبي هريرة

وقبل كل شيء نطلب إنتباه القارىء إلى اختلاف هذه الروايات في عبارة الحديث اختلافا لفظيا ناشئا على ما نرى من أنهم كانوا في الأكثر يروون الأحاديث بالمعنى فيتصرفون في ألفاظها كل بحسب رأيه في معناها كما نراه في رواية هذا الحديث ، فبعضهم قال إذا وقع في الشراب ، وبعضهم في الطعام وبعضهم في الإناء ، ومنهم من عبر بالغمس ، وبعضهم بالمقل وهو بمعنى الغمس ، وبعضهم عبر بالنزع والآخر بالطرح والراد من كليهما واحد ، ومنهم من اقتصر على الغمس ولم يذكر النزع ولا الطرح ، ومنهم من قال فليغمسه كله ومنهم من أسقط كلمة كله ، ومنهم من قال في أحد جناحيه داء ومنهم من قال سم ، وبعضهم قال يتقي والآخر قال يقدم

ولكن الروايات كلها اتفقت في أن الداء أو السم هو في أحد الجناحين وأن الشفاء في الجناح الآخر ، وكذلك اتفقت أيضا في بيان سبب الأمر بالغمس ، وهو أن الذباب عند وقوعه في الشراب يتقي بالجناح الذي فيه الداء ، أو يقدم الجناح الذي فيه السم ويؤخر الآخر كما جاء في الرواية الأخرى

فالأمر بالغمس إنما جاء لكي يدخل في الشراب الجناح الآخر الذي فيه الشفاء . إن هذا الإختلاف اللفظي الذي جاء في هذه الروايات لا يقدح في صحة الحديث إن كان صحيحا ما دام المعنى المراد فيها كلها واحدا . ولكن على فرض صحة الحديث يستبعد أن يكون رسول الله تكلم بهذه الألفاظ المختلفة كلها ، وإنما عبر بواحدة منها ، والرواة التزموا جانب المعنى فعبروا عنها بما يوافقها أو يقاربها ، سواء كان ذلك منهم عن قصد لمراعاة المعنى ، أم عن نسيانهم وذهولهم عن الألفاظ ، فإن المعنى قد يرسخ في ذهن الراوي وتشذ عنه الألفاظ . فإذا أراد بيانه عبر عنه بألفاظ من عنده . وكل من قرأ في كتب التاريخ شيئا عن حياة الواقدي أحد مشاهير الرواة في القرن الثاني عرف كيف تكون الرواية بالمعنى ، فإن هذا الرجل كان من أعجز الناس عن حفظ الألفاظ حتى إن المأمون الخليفة العباسي أراد مرة أن يحفظه سورة الجمعة من القرآن فما استطاع . ثم وكل به من يحفظه إياها فما استطاع ، وكان الموكل به إذا حفظه آية ثم انتقل به إلى ثانية نسي الأولى ؛ وإذا عاد إلى تحفيظه الأولى نسي الثانية . وكان يقرأ ما نسيه بالمعنى فيبدل الألفاظ . وأمثاله في الرواة كثيرون

لا يتسع المقام هنا لنقد الرواية بالمعنى ، وبيان ما ينتج عنها

من مضار ، فنترك ذلك لفرصة أخرى . غير أنا نقول إن لجوهر المعنى ارتباطا كليا بجوهر اللفظ ؛ فكل تغيير فى اللفظ لا يخلو من تغيير فى المعنى ، قل أو كثر ، حتى أننا لو وزنا الألفاظ المترادفة بقسطاس مستقيم من الفهم والإدراك لما قلنا بأنها مترادفة ؛ فتبديل الألفاظ بما يرادفها أو يقاربها فى المعنى فيه خطر عظيم على المعنى خصوصا فى النصوص التى لا مستند لفهمها فهما صحيحا سوى الألفاظ . ولا مرية فى أن تبديل الكلمات بما يرادفها أو يقاربها فى النصوص قد يغير وجه الحكم المستنبط منها ، كما أنه قد يبعد بها عن المعنى المراد بعدا شاسعا ، لأن المترجم مهما برع وأجاد فى نقل المعنى بوضع ألفاظ من اللغة التى يترجم إليها ، تؤدى معنى الألفاظ من اللغة التى يترجم منها فإنه لن يستطيع أن يوفى المعنى حقه بتمامه ، بل لا بد أن يخون المعنى بعض الشىء فى ناحية من نواحيه . فالمترجم لا يتخلص من الخيانة وإن كانت خيانته اضطرارية غير اختيارية

ولهذا امتنعت الإصابة والإجادة فى ترجمة الشعر من لغة إلى لغة أخرى؛ لأن محاسن الشعر لا تقوم بالمعنى وحده بل بانتقاء ألفاظه وحسن سبكه وانسجام تراكيبه أيضا ، ولا ريب أن محاسن الكلام فى كل لغة تختلف كل الاختلاف ؛ فالذى يترجم الشعر لا بد له أن يتصرف فيه مراعاة لمحاسن الكلام فى اللغة التى يترجم إليها وإلا جاءت الترجمة تافهة وخرج الشعر عن كونه شعرا ، وبهذا التصرف الذى لا بد منه يقع البعد بين المترجم منه وبين المترجم إليه

ولهذا أيضا امتنعت ترجمة القرآن من العربية إلى غيرها من اللغات ، فإن ترجمته مع المحافظة على مافيه من روعة وطلاوة تكاد تكون مستحيلة . وقد ترجمه الترك فى أيامهم الأخيرة عدة ترجمات فلم يفلحوا ، بل جاءت ترجماتهم شيئا مضحكا . وقد ترجمه إلى لغاتهم أهل أوربا أيضا ؛ وقد ذكر لى أحد مسارق ممن يحسنون اللغات الغربية أنه قرأ فى إحدى ترجماتهم قوله تعالى « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا » مترجما بما معناه إن كل إنسان يوم القيامة يكون فى رقبته عصفور مطلق ، وهذا شىء مضحك أيضا . إن الكلام عن الرواية بالمعنى قد أخرجنا عن الصدد فلنعد إلى ما نحن فيه فنقول :

لا كلام لنا على اختلاف الرواة فى عبارة الحديث ، لأن المعنى المراد فيها كلها واحد ، وإنما نريد أن نتكلم عن المعنى المقصود من الحديث فنثبته للقارىء واضحا صريحا ، ثم نرى هل ينطبق على ما يقوله الدكتور فائق شاكر ويدعيه

إن المفهوم بصراحة من الروايات كلها ، هو أن الداء أو السم ، لا يكون إلا فى أحد جناحى الذباب لا فى كليهما ؛ وإن الذباب عند وقوعه فى الشراب أو فى الطعام يتقى صدمة الوقوع بالجناح الذى فيه الداء ، فيغمس ذلك الجناح فى الشراب ، ويبقى الجناح الآخر فوق غير منغمس ، وكأن عبارة إحدى الروايات القائلة بأنه « يقدم السم ويؤخر الشفاء » قد جاءت تفسيرا لعبارة الرواية الأخرى القائلة بأنه « يتقى بجناحه الذى فيه الداء »

وإذا علمنا هذا فقد علمنا لماذا جاء الحديث يأمر بالغمس ، ذلك لأن الجناح الذى فيه الداء قد انغمس فى الشراب فتلوث الشراب بدائه فإذا انغمس الجناح الآخر بطل حكم الداء الذى حصل من الجناح الأول وسلم الشراب

هذا هو المعنى الواضح الصريح الذى تؤديه عبارة الحديث فى جميع الروايات على اختلافها فى التعبير . وبعد هذا فلننظر فيما يقوله الدكتور حفظه الله ، ليتبين لنا أين وجه الصواب

أين محل البكتريوفاج من الذباب ؟

نستخلص الجواب على هذا السؤال من كلام الدكتور نفسه فنقول : يدعى الدكتور بأن المراد من الشفاء المذكور فى الحديث هو ما اكتشفه العلم فى هذا العصر من « البكتريوفاج » التى فسرها بمفترسات الجراثيم ، وإذا كان المراد بالشفاء هو هذا فلننظر أين يوجد البكتريوفاج من الذباب؛ أهو فى أحد الجناحين أم فى كليهما ، أم فى جسم الذبابة كلها، أم فى قناتها الهضمية ، أم فى ذراعيها ورجليها ؟

قال حفظه الله فى الفصل التاسع والصفحة (٥٢) « إن الذباب المعروف بذباب البيوت ، يقع على البراز ، والمواد القذرة ، وكل هذه مملوءة بالجراثيم الموالدة للأمراض، فاختيار الذباب لها ، يدل على أنه يأكل الجراثيم والبكتريوفاج معا؛ فيأكله الجراثيم اجتمع

فيه الداء ، وبحصول البكتريوفاج اجتمع فيه الشفاء »

إن المفهوم بصراحة من عبارة الدكتور هذه أن البكتريوفاج يوجد فى جسم الذبابة ، ولم يخص به عضوا دون آخر ، ولما كان الجسم يشمل الجناحين ، جاز أن يقال بأنه موجود فى الجناحين أيضا . (ولا تنس أن عبارة الحديث تخص به أحد الجناحين دون الآخر)

ويفهم أيضا ضمنا من عبارة الدكتور أن البكتريوفاج يوجد فى القناة الهضمية من الذبابة لأنه قال بأنها تأكل مع الجراثيم المضرة أيضا . وتتضمن عبارته أيضا أن البكتريوفاج يوجد فى رجلى الذبابة وفى يديها لأنه قال تقع على البراز

ولا شك أن يديها ورجليها ترتطمان فى البراز فتعلق بها الجراثيم المضرة والبكتريوفاج معا . فمن هذه العبارة نفهم صراحة وضمنا أن البكتريوفاج يوجد فى جسم الذبابة كله حتى الجناحين

ولنا على هذا اعتراض ، وهو أن الذبابة بوقوعها على البراز قد تلوثت به يداها ورجلاها ، أى تلوثت بالجراثيم المضرة والبكتريوفاج معا ، وأنها بأكلها البراز قد حصل البكتريوفاج فى قناتها الهضمية أيضا . ونتوسع أكثر من هذا فنقول إن البكتريوفاج يوجد فى صدرها أيضا وفى بطنها ، لأنهما يلينان البراز الذى وقعت عليه ، ولكن كيف تلوث جناحاها بالبراز فوجد فيهما البكتريوفاج وهما فى القسم الأعلى من جسمها ، لا مساس لهما بالبراز (سنذكر كلاما للدكتور يكون جوابا لهذا ثم نجيب عليه) وقال أيضا فى الصفحة (٥٣) « وبنقله (أى الذباب) الجراثيم والبكتريوفاج المهيأ فى براز الناقهين مباشرة ، اجتمع فى الذباب الداء والشفاء » . قال « فهذا هو معنى ماورد فى عجز الحديث الشريف (قال فى أحد جناحيه داء وفى الآخر شفاء)

إن الدكتور يرمى الكلام على عواهنه رمياً ، وإلا فكيف يكون هذا هو معنى ماورد فى الحديث . لاشك أن الذباب بوقوعه على براز الناقهين وأخذه منه الجراثيم ، يكون قد اجتمع فيه كلا النوعين من الجراثيم المضرة والناقعة بلا ريب . فاجتماع كلا النوعين فى الذباب أى فى جسمه أمر لا مرية فيه ، ولكن كيف يكون ذلك هو المعنى المقصود مما ورد فى الحديث الذى يخص كل واحد من النوعين بواحد من الجناحين ، ولولا وجود المضر فى جناح والنافع فى جناح آخر لبطلت حكمة الأمر بغمس الذباب فى الشراب ، إذ لا شك أن الأمر بالغمس مسبب عن وجود الشفاء فى جناح واحد ، وعن كون الذباب يتقى عند وقوعه بالجناح الذى فيه الداء ، فالجناح الذى يتقى به ينغمس فى الشراب ويبقى الجناح الذى فيه الشفاء خارجا غير منغمس ، فلذا أمر بغمس الجناح الثانى أو بغمس الذبابة كلها كما جاء فى بعض الروايات ، لكى ينغمس الجناح الآخر الذى فيه الشفاء ، فيبطل حكم الداء

ولو كانت الجراثيم الناقعة موجودة فى كلا الجناحين أو فى جسم الذبابة كله لما أمر بالغمس ، بل كان الأمر بالغمس عبثا لأن الذبابة بوقوعها فى الشراب قد ارتطمت فيه أرجلها وأيديها وبطنها وصدرها وأحد جناحيها ، وفى هذه الأعضاء يوجد النافع والضار كما يقول الدكتور . وقد حصل البكتريوفاج فى الشراب وبطل حكم الجراثيم المضرة . أفليس من العبث بعد هذا أن نغمس الذبابة فى الشراب ؟ وخلاصة القول أن الحديث إن صح فإنما ورد لبيان أمرين لا ثالث لهما ، أحدهما غمس الذباب عند وقوعه فى الشراب ؛ والثانى بيان سبب الغمس وحكمته . وعليه فالجدال بيننا وبين الدكتور ينحصر فى نقطة واحدة هى الغمس لا غير . ولذا نقول إن كان الشفاء لا يوجد إلا فى أحد الجناحين كما يقول الحديث ، وكان الذباب يتقى بالجناح الذى فيه الداء كما يقول الحديث أيضا كان الغمس راجبا ، وكان الأمر به معقولا ومقبولا ، لكى يتم دخول الشفاء فى الشراب مع الداء . وإن كان الشفاء أو البكتريوفاج موجودا فى جسم الذبابة كله كما يقول الدكتور كان الغمس عبثا وكان الأمر به غير معقول ولا مقبول ، لأن الذبابة بوقوعها فى الشراب قد انغمس فيه أكثر جسمها ، ولم يبق منها إلا جناح واحد ، وقد دخل منها فى الشراب كلا النوعين النافع والمضر من الجراثيم فأى حاجة تبقى إلى الغمس ؟

ثم أن الدكتور بعد ما فسر عجز الحديث على هذا الوجه وأخذ يتكلم عن صدره فقال : « وأما ماورد فى صدر الحديث الشريف : (إذا وقع الذباب فى شراب أحدكم فليغمسه ثم

ليزعه) فالغمس هو لأجل أن يدخل البكتريوفاج للشراب »

أما نحن فنقول : أما أن الغمس هو لأجل أن يدخل الشفاء والبكتريوفاج فى الشراب فصحيح لامرية ولكن ذلك لا يتجه إلا بأن يكون البكتريوفاج فى أحد الجناحين دون الآخر كما بيناه آنفا ، وإلا لم تبق حاجة إلى الغمس لأن البكتريوفاج موجود فى ذراعى الذبابة وفى رجليها وقد انغمستا فى الشراب ، كما أنه موجود فى الجناح الآخر (على ما يقول الدكتور) وقد انغمس فى الشراب ، ودخل البكتريوفاج فيه ، فلماذا يأمر بالغمس والبكتريوفاج داخل قبل الغمس !

وقال أيضا فى الصفحة (٥٣) « فالفن قد أثبت وجود البكتريوفاج فى جسم الذبابة ، سواء بحصوله من بلعها الجراثيم المرضية فى أنبوبتها الهضمية أو بنقلها من براز الناقهين »

وقال أيضا فى الصفحة نفسها : « وحيث ورد فى نص الحديث فليغمسه أى فليغمس الذبابة كلها فقد دخل فى الغمس جسمها مع جناحيها . ولم يرد فى الحديث غمس الجناحين فقط ، مما دل على أن الداء والشفاء فى الجناحين امر اعتيادى لا يفيد التخصيص ، والأمر بغمسها يؤيد ذلك . وهو لأجل تطهير الشراب من الجراثيم بإدخال البكتريوفاج للشراب من جسم الذبابة »

هذه هى عبارته بعينها وميتها وقد جاءت بالأعاجيب فلننظر فيها بشئ من التحليل والتمحيص ليظهر ما يرمى إليه الدكتور فيها

يقول « قد دخل فى الغمس جسمها مع جناحيها » فنقول : إذا وقعت الذبابة فى الشراب ، فقد انغمس فيه جسمها لا محالة ، أما الجناحان فيجوز أن يكونا منغمسين أيضا تبعا للجسم ، ويجوز أن يكونا غير منغمسين لرقتها ، ولكونها من الفروع العليا فى جسم الذبابة ، وبناء على هذا كان ينبغى للدكتور أن يقول فقد دخل فى الغمس جناحا الذبابة مع جسمها ، ولكنه عكس العبارة لكى يجر الحديث إلى ما يريده هو . ولما كان من الجائز انغماس الجسم دون الجناحين ، أو دون أحدهما ورد الأمر فى الحديث بغمس الذبابة كلها لكى ينغمس جناحاها أيضا مع جسمها ، لاجسمها مع جناحيها كما يقول الدكتور ، وهذا نعود فنقول إن حكمة الأمر بالغمس تبطل إذا كان الشفاء أو البكتريوفاج موجودا فى جسم الذبابة كله كما يقول الدكتور ، لا فى أحد جناحيها كما يقول الحديث

ويقول فى عبارته هذه أيضا : « ولم يرد فى الحديث غمس الجناحين فقط » ، أى أراد غمس الجسم أيضا مع الجناحين ، هذا هو تفسير مراده من هذه العبارة ، فنقول ياسبحان الله ! إن عبارة الحديث بمنطوقها ومفهومها تدل على أن جسم الذبابة عند وقوعها فى الشراب يكون منغمسا فيه وكذلك احد جناحيها فلذلك أمر بغمسها كلها لكى ينغمس الجناح الآخر الذى فيه الشفاء ، وعليه كيف يريد غمس الجناحين فقط حتى يحتاج الدكتور إلى نفيه ! وقال فى الصفحة (٥٣) ولو كان الاجنحة فقط خصوصية الداء والشفاء لأمر عليه الصلاة والسلام بغمسها وحدها »

البقية فى العدد القادم

معروف الرصافى

رفائيل

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

إحدى روائع القصص العالمى الواقعى

لشاعر فرنسا الخالد « لامرتين »

قص فيها بأسلوبه الشعرى تاريخ فترة من شبابه تدفق فيها حسه بالجمال وفاض بها شعوره بالحب . . وهى كالام « فرتر » فى دقة الترجمة وقوة الأسلوب طبعت أربع مرات وثمنها ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد